



Source : AN WAHAR
Date : 19.11.95
Photo No. : 210

معنى ان نكتب او الربح في لحظة الخسارة

اليوم، اذاً، تنتهي المعركة.

اليوم، اذاً، تنتهي اللعبة.

اليوم، تعرف اتنا لن نفاجأ بشيء. ومع ذلك، نجد انفسنا حائرين، واكثر من اي يوم مضى، امام وصفين مختلفين لهذا الحدث الواحد الذي اعلن عن حدوثه المحتم، بل حسمت آلية حدوثه، او "تخريجه" كما يقولون. فالبعض سيهز رأسه ويقول مشمئزاً او لامبالياً او مقتنعاً: "لعبة لا بد منها"، فيما سينظر البعض الآخر الى نفسه ويقول: "معركة خاسرة لا بد منها".

وصفان لحدث واحد ينطلق كلاهما من حتمية الحدث، لكنهما لا يتطابقان، فاحدهما يقف عند ما يعتبره قدراً، ولو مؤقتاً، بينما يتخطاه الثاني تأسيساً لمعارك اخرى، لعل معظمها خاسر. فأيهما الاصح؟

في اللحظة التي تتوج مسيرة تمويل السياسة قدراً، يصعب الهروب من هذا السؤال. لكن الاجابة عنه تصعب ايضاً. بالطبع، لا يطرح السؤال على هواة كلام السر ورفع الايدي، ولو على مضمض: من نوابنا الكرام، انما يطرح على من رأى نفسه مدعواً الى التفرج، والتفرج فقط، على لعبة تُقرَّر في منأى عنه، فعزم ان يزج نفسه فيها، وان من دون اوهام. بكلام آخر، السؤال مطروح على هذه الاقلية الضئيلة من الصحفيين والكتاب والمثقفين والفنانين واصحاب الممن الحرة والطلاب الذين اعتبروا انفسهم معنيين بالدفاع عن دولة تخلى عنها اهلها وعن دستور تنكر له حماته المقترضون.

لا يتضمن السؤال ترفاً فكرياً وهو لا يهدف إلى التنظير لدور المثقف (وإن يكن الأمر ضرورياً في هذه اللحظة بالذات). إنه سؤال سياسي بامتياز: هل كانت هذه الأقلية، هل كنا على حق في خوض معركة خاسرة؟ أم إن وهم التأثير في قرار أكبر منا جعلنا نوهم الناس إن ما يدور ليس لعبة، فاضفى شرعية على المسرحية؟

لا بد من القول هنا، ولمزيد من الأمانة، إن اللاتباس، إذا كان هناك من التباس، لم يكن عند أحد نتيجة رغبة في تضليل الناس، بل كان وليد الظروف الملتبسة لهذه المعركة نفسها. فإذا ما قررت أن تنخرط باللعبة، يصبح لزاماً عليك استخدام أسلحة لا تعجبك، واطرها هذا التكاذب الذي يجعلك تخاطب مجلس النواب باعتباره سيد نفسه ويدفعك إلى التساؤل، باللف والدوران، عن مستقبل العلاقات المميزة وحقيقة المصالح السورية في لبنان.

لم تكن إذا معركة محكومة بالخسارة فقط. كانت أيضاً محكومة بسقف، لأن تمة أشياء لا تقال إلا تلميحاً (ولا حاجة، هنا خصوصاً، للتصريح توضيحاً لهذا التلميح بالذات). ومع ذلك، لا نعتقد أن أحداً من الأقلية الضئيلة التي خاضت المعركة الخاسرة تادم على ما فعله. فيأزاء هذا القليل من الشرعية الذي أعطي لمسرحية الاستحقاق، كان هناك، وما زال، ما يعوض. ولعلنا في ختام هذه المعركة الخاسرة مدعوون، أكثر من أي وقت مضى، إلى حساب الربح والخسارة.

الخسارة معروفة، ولكن أين الربح، سيقول المؤمنون أن اللعبة لعبة؟ هنا أيضاً يصعب الجوح، خوفاً على القليل الذي تحقق. إذ إن شيئاً ما تحقق، ولنسمه رفعا لسقف السياسة، أو، بتعبير أدق، لسقف الكلام المباح في السياسة. فأى مقارنة بين ما كان يكتب قبل سنة، وما قيل في الأشهر الأخيرة، ستنتهي إلى أنه تم تجاوز الكثير مما كان يعتبر خطوطاً حمراء. ربما من أجل ذلك فقط، كان لا بد من الدخول في هذه المعركة الخاسرة. ربما من أجل المحافظة على ذلك فقط بعد غد، لا بد من الاستمرار في مثلها من المعارك الخاسرة.

سمير قصير